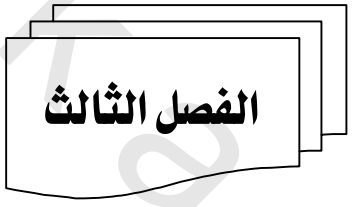


# الحوار مع مختلف الشخصيات والعقول

obeikan.com

obeikan.com

كثيرة هي القضايا التي عالجها الرسول ﷺ في حواراته مع الآخرين، فالحوار جزء محوري، بل هو الوسيلة الأساس في الدعوة الإسلامية، وهي تلج الأفئدة وتخاطب العقول، لم يمتلك الرسول الدينار والدرهم، ولا المنصب والجاه، ولا العتاد والسيف، فلم يجذب القلوب بمغريات مادية، ولم يقهرها بالسيف والسلطان، بل امتلك القرآن والهداية والعقيدة البسيطة الصافية، والمسلك الحسن، والتربية الحقيقية للنفوس.

لم يسطّر الرسول ﷺ الصحائف؛ فقد كان أُميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولكنه امتلك فصاحة عالية، وفهم دقيق، وعلم واسع مستمد من القرآن، ومن الوحي، وقدرة على الغوص في القلوب، وقراءة الوجوه، ولا عجب فقد أدبه ربه، فأحسن تأديبه. فتحلقت القلوب حوله، ترتشف من رحيقه.

وقد جعل الرسول ﷺ مواقف الحياة المختلفة، وسيلة للدعوة، وترسيخ الإيمان وتعميق المفاهيم، وإثارة مختلف القضايا، ومناقشتها بشكل هادئ، وعلى مستويات متعددة من العقول، وتحاور في سبيل ذلك مع الكثير من الناس مختلفي الفئات، متفاوتي الفهم، متعددي الثقافة.

وفي هذا الفصل ستتم مناقشة بعض أنماط الأشخاص ومستوياتهم التي حاورها الرسول، وهم متعددون بتعدد الأمكنة والأزمنة في مسيرة الدعوة، وسيكون تناولنا لهذه القضايا بشكل أفقي، حيث سيتم عرض هؤلاء الناس الذين حاورهم الرسول ﷺ من حيث كيفية طرح القضية، واختلاف الطريقة حسب عقول من يحاورهم، وكيف كان الحوار وسيلة لإيصال القضية وتعميقها في النفوس. فمحور القضايا هنا: أن يكون الحوار أساسًا في طرحها، وفي طريقة معالجتها، وربما يكون هناك تداخل بين بعض المحاور، ولكنه لا يمنع من تكامل الطرح، وبالتالي سنتعرف على كيفية معالجة الرسول للقضية عبر حواراته العديدة في المواقف المختلفة، عبر ثلاثة مباحث:

- مع المشركين
- مع البسطاء وحديثي الإسلام
- حول تقلبات النفس المسلمة.

# المبحث الأول

# الحوار مع المشركين

طبيعي أن يتحاور الرسول مع الكفار والمشركين في أول بعثته، فقد كانت البيئة التي عايشها، وبُعِثَ فيها، يعشش الشرك في أجنابها، وتتبارى القبائل والعشائر في اتخاذ أصنام لها، مما جعل عدد الأصنام المنصوبة حول الكعبة المشرفة تتجاوز المئات، وأفسد الشرك السلوك، فكانوا غلاظ الألسنة، شديدي القسوة على الرسول ﷺ، وقد تحمّل الرسول عنتهم، وصبر على أذاهم، واستبدل الرأفة بقسوتهم، وظل يحاورهم، ويناقشهم، حتى لانت قلوب بعضهم، وإن ظل الأكثرون على عنادهم حتى هاجر من مكة إلى المدينة.

وفي هذا المبحث نتناول عدة مواقف، بين الرسول ﷺ وبين أهل مكة من الكفار، لنتعرف منهجه في الحوار مع هؤلاء المشركين، ولنستعرض أبرز المواقف التي كانت بين الرسول والكفار.

- **الموقف الأول :**

**الحوار مع عمه أبي طالب، وهو لا يزال على الشرك.**

لمَّا اشتد أمر الرسول، وذاعت دعوته في مكة المكرمة، جاء وفدٌ من كُفَّار مكة، إلى أبي طالب عم الرسول ﷺ، وراحوا يتفاوضون مع أبي طالب: فـ " قالوا له: يا أبا طالب إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلةً فينا وإنَّا قد استنهيناك (حذرناك) من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنَّا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا (عقولنا)، وعيب آلهتنا حتى تكفه (تمنعه) عنا أو ننازله وإياك في ذلك

حتى يهلك (يُقتل) أحد الفريقين". انصرفوا عنه، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفسًا بإسلام رسول الله ﷺ ولا خذلانه [٢٢٨].

نلاحظ في هذا الموقف، العلاقة الحميمية بين الرسول ﷺ وبين عمه أبي طالب، رغم أن الأخير ظل على الشرك، ولكنه كان يناصر ابن أخيه محمدًا، وكان يحميه من عنف الكفار، وإرهابهم. وفي المجتمع المكي كانت العلاقات العشائرية لها دورٌ كبير في حماية الأفراد. وقد اشتكى الكفارُ الرسول محمدًا ﷺ إلى عمه أبي طالب، فاتهموه أنه شتم آلهتهم، وسخر من عقولهم، وأرادوا من أبي طالب أن يمنعه أو يتركهم عليه، فوجد أبو طالب نفسه يواجه قومه، وهم غاضبون عليه، فقرَّر أن يحاور الرسول محمدًا، ابن أخيه.

"بعث (أبو طالب) إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني، فقالوا: كذا وكذا الذي قالوا له، فابق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق. فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بدو وأنه خاذله (متخل عنه) ومسلّمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه. فقال رسول الله ﷺ: يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك (أموت) فيه ما تركته. قال: ثم استعبر (دمع وبان والتأثر عليه) رسول الله ﷺ فبكى ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب. فقال: أقبل يا ابن أخي، فأقبل عليه رسول الله ﷺ. فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فو الله لا أسلمتك لشيء أبداً [٢٢٩].

فقد أرسل أبو طالب إلى ابن أخيه، فجاءه محمد، وراح أبو طالب يوضح له الأمر، وأن القوم يشتكون من دعوته إلى دين جديد، ونقل إليه ما قالوه خاصة أنهم عرضوا عليه المال والجاه، فقالوا الرسول ﷺ قولته الشهيرة بأن المشركين لو منحوه كل شيء، حتى لو كان الشمس والقمر، فلن يتخلى عن دعوته إلى الله

٢٢٨ ) البداية والنهاية، ابن كثير،أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير،، دار المعارف، بيروت، ط٣، ١٩٨٠، مج٣، ص٤٢. والسيرة النبوية، ابن هشام ( أبو محمد عبد الملك ابن هشام ) نشر موقع www.al-eman.com ( نداء الإيمان )، مكتبة التراث الإسلامي. المجلد الثاني، باب " عداوة قومه له ومساندة أبي طالب ".

٢٢٩ ) المصدران السابقان، نفس الصفحات.

تعالى، وبكى الرسول أمام عمه، ظانا أن عمه، سيتراجع عن نصرته، وهذا ما نفاه عمه، ونادى على الرسول، وطلب منه أن يستمر في دعوته، فلن يخذله أبدًا.

في هذا الموقف عدة أمور:

– إن الرسول ﷺ كان متعايشاً مع قومه، وهم على كفرهم، ورغم قسوتهم عليه، وتعذيبهم له، إلا أنه التزم مبدأ التحاور معهم، فلم يعتزلهم أو يتجنبهم، بل يدعوهم، ويصبر عليهم.

– نرى قيمة الوفاء والحماية في سلوك أبي طالب عم الرسول ﷺ، حيث ظلَّ مناصرًا لابن أخيه، بينما كان عم الرسول "أبو لهب" ويدعى "عبد العزى بن عبد المطلب"، مناصرًا العداء للرسول وفيه نزلت سورة المسد، قال الله تعالى: { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) }[٢٣٠]. وقد قد كان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغضة له، والازدراء به، والتنقص له ولدينه، وقد كانت زوجته "أم جميل" عونًا لزوجها على كفره وجحوده وعناده [٢٣١].

– إن هذا الموقف يظهر صدق دعوة رسول الله ﷺ، وثباته، فرغم كل العذاب الذي رآه، وتعرض له، وأيضًا تعرض لكل الإغراءات من مال وجاه ومنصب، فإنه ظلَّ صامدًا، ثابتًا، ولما رأى ضعف أبي طالب أمام إلحاح قريش، لم يتراجع بل ازداد ثباتاً على ثبات، وعزم السير في الطريق مهما كلّف الأمر.

– ظل أبو طالب عم الرسول ﷺ على نصرته لابن أخيه، حتى وفاته في نفس العام الذي توفيت فيه السيدة خديجة زوجة رسول الله ﷺ الأولى، وسمي هذا العام عام الحزن.

– في الموقف إشارة إلى أن الرسول ﷺ كان شخصية منفتحة على جميع أطياف المجتمع المكي، فالأساس في الإسلام الدعوة لجميع الناس، وقد استعان

---

٢٣٠ ) سورة المسد، الآيات ( ١- ٥ )

٢٣١ ) تفسير ابن كثير، ج٤، ص٦٧٦، ٦٧٧.

الرسول ﷺ في مناصرته بالعديد من أهل الشرك، ذوي العقول والشهامة والنخوة، وعمه أبي طالب نموذجًا لذلك، وأيضًا المطعم بن عدي الذي ناصر الرسول ﷺ عندما عاد من الطائف بعدما رفض أهل الطائف دعوته، حيث دعا أبناءه وقومه، فقال: البسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرتُ (ناصرتُ) محمدًا، فدخل الرسول مكة وطاف بالبيت، وانصرف إلى بيته، والمطعم بن عدي وبنوه محدقون به بالسلاح[٢٣٢]، وفي هذا إشارة أيضًا إلى وجود الكثيرين من العقلاء في أهل الشرك، وأنهم لم يشاركوا في إيذاء محمد ﷺ، وإن ظلوا على شركهم، وكان الرسول يحترمهم، ويقدرهم، وعندما أسلموا أفادوا الدعوة بحنكتهم وخبراتهم المختلفة مثل: عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد وغيرهما.

## ▪ الموقف الثاني : الحوار مع كفَّار مكة

حيث اجتمع عددٌ من وجهاء مشركي مكة، وقرروا أن يتحاوروا مع الرسول محمد فيما يقول، فذهبوا إليه وتحدثوا معه، بعرض دنيوي مغرٍ، ظنا أن الرسول يمكن أن يتم احتواؤه بهذه الطريقة. "فقالوا: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك، وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، وما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك. فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا، وإن كنت تريد مُلكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك – وكان يسمون التابع من الجن الرئي – فربما كان ذلك؛ بذلنا لك أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه، أو نعذر فيك ؟ "

٢٣٢ ) انظر : نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، الشيخ محمد الخضري، ( مراجعة وتخريج إبراهمي محمد علي )، دار الجيل ببيروت ودار عمار بعمان،ط١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ص٨٠. وانظر أيضا : زاد المعاد، ج٢، ص٧٢

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيراً نذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم (٢٣٣).

لقد استهل الكفار حديثهم مع الرسول محمد ﷺ باستعراض أبرز الآثار التي أحدثتها دعوة الرسول في أهل مكة وهي: السخرية من عبادتهم، شتم معتقداتهم، تفريق جماعتهم، والسخرية من عقولهم، وأنه لا أحد من العرب فعل ذلك من قبل. ثم عرضوا عليه عرضًا دنيويًا يتضمن مغريات عديدة:

أولها: لو أراد المال والثراء، فهم سيجمعون له من أموالهم، ما يجعله أغنى أغنياء مكة.

ثانيها: لو أراد الشرف (الجاه) فهم سيسلمون له بذلك، ويجعلونه سيدًا عليهم.

وثالثها: لو أراد المُلك، فهم قبلوا أن يكون ملكًا عليهم.

ورابعها: لو كان ما يأتيه من وحي (من الله تعالى) سِحرًا وجنًا، فهم على استعداد لإنفاق المال حتى يتم علاجه.

وقد جاء الرد من الرسول بسيطًا: إما أن تقبلوا ما جاءه من الله من البشرى (الجنة) والنذير (النار)، أو يصبر حتى يحكم الله، وهو خير الحاكمين.

الموقف السابق يدل على إفلاس الكفار مع الرسول ﷺ، والإفلاس يعني خواءً فكريًا وروحيًا وعقديًا، لا يمكنهم مواجهة الرسول به، خاصة أن أعداد المسلمين في تزايد، وأن ما ينادي به محمد من أمر مقبول عقليًا، فإن الأصنام لا نفع منها، وأن المنظومة الأخلاقية في الجاهلية فاسدة للنفس والعقل، وفوق كل ذلك، فإن معجزة القرآن تلجم العقول ببلاغتها، وقوة أثرها الروحي والنفسي.

---

٢٣٣ ) السيرة النبوية لابن هشام ، المجلد الثاني، فصل : " زعماء قريش تفاوض الرسول صلى الله عليه وسلم )، وانظر : البداية والنهاية، الجزء الثالث، فصل " اعتراض المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والموقف دال أيضًا على طبيعة تعامل الكفار مع الرسول، فهم يتعاملون بمنظور الدنيا: الشهرة، المال، الملك، وهو ﷺ في شفقة عليهم، وعلى عقولهم التي ترتع في جهالة وكفر.

في الحوار السابق، لم يكن الرسول يرد بحجج وأدلة وبراهين فقد ساقها في حواراته السابقة، وما أكثرها في الآيات القرآنية المكية، وإنما كان بالرد أنه نبي مرسل، مهمته الإبلاغ، ولا يملك غير ذلك، ويختم كلامه: "وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم"، وهذا دليل على صبره واحتسابه الأمر كله لله تعالى.

ولنتابع بقية الحوار بين الكفار والرسول ﷺ:

"قالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشًا منا؛ فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال، التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليجر فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيما يبعث لنا منهم: قصي بن كلاب، فإنه كان شيخًا صدوقًا، فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل؟ فإن فعلت ما سألناك وصدقوك صدقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بهذا بعثت إليكم إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوا عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فسل ربك أن يبعث لنا ملكًا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لنا جناناً وكنوزًا وقصورًا من ذهب وفضة، ويغنيك عما نراك تبتغي، فإنك تقوم في الأسواق وتلتمس المعايش كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم.

فقال لهم: ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرًا ونذيرًا، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنَّا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال ﷺ: ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك [٢٣٤].

لما يأس الكفار من إجابة الرسول إلى طلبهم بأن يترك الدعوة ويقبل الدنيا، راحوا يطالبون بما هو فوق طاقة الرسول ﷺ وهي طلبات تشمل أن يجري الله تعالى أنهارًا في بلادهم القاحلة، وأن يحيي أحد زعمائهم القدامى وهو قصي بن كلاب ليسألوه، أو يجعل لهم حدائق وقصورًا من ذهب وفضة وغير ذلك، وهي طلبات دالة على منظورهم الدنيوي القاصر، الذي يقيس الأمور بالمادة والشهوة، دون نظر قلبي، وتأمل في خلق السماء والأرض. لقد حوّلوا الأمر إلى مراء، ولأن الرسول ﷺ أدرك ذلك، فإنه اكتفى بتكرار ردوده، وأنه لا يملك من الله شيئًا، فالأمر كله لله، وما هو إلا نبي مرسل، مأمور بالإبلاغ؛ تبشيرًا بالجنة، وإنذارًا من النار.

فكون الرسول يكرر ردوده بشكل متشابه تقريبًا: "فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم" فيوكل الأمر كله لله، وأنه ليس مبعوثًا بإجابة طلبات دنيوية لهؤلاء المشركين أو لغيرهم، فهذا توكيد على عظم الدعوة، وسمو الرسالة، والرسول هنا يقيم الإبلاغ في حده الأدنى، موضحًا مهمته، وأن الله يحكم بينه وبينهم، فلا مجال لغير ذلك، وأن العقائد التي دعاهم إليها الرسول، تشهد العقول بصحتها، دون احتياج لبرهنة وأدلة.

لقد ادّعى البعض - من المستشرقين وخصوم الإسلام - أن العرب قبلوا بدعوة الإسلام، ودخلوا في دين الله أفواجًا، لأنهم كانوا في طور نهوض أدبي

٢٣٤ ) المصدران السابقان، نفس الصفحات.

واجتماعي، تجعلهم يقبلون هذه الدعوة بسهولة [٢٣٥]، ولكن ما فعله كفار مكة من صد وتعذيب وسخرية واستهزاء بالرسول وصحبه، يرد بوضوح على هذه الادعاءات ويدل على فسادها، ذلك أن المؤمنين بالدعوة الإسلامية في مكة المكرمة، بعد ثلاث عشرة سنة أمضاها النبي بين ظهرانيهم وكانت المحصلة: "أفراد من أهل قرابته، وآخرين من ذوي العقول الممتازة، الذين لا يخلو من أمثالهم أي مجتمع، مهما كان متغلغلا في الجاهلية، وقد كانوا من القلة بحيث خضعوا لجميع ضروب الاضطهادات فلمَّا لم يجدوا مخرجًا عمدوا إلى المهاجرة إلى الحبشة" [٢٣٦].

## ▪ الموقف الثالث :

## الرسول ﷺ يرد بآيات القرآن الكريم

وهي ليست موقفًا واحدًا، بل مواقف متعددة، واجه الرسول الكفار بآيات القرآن الكريم، وهي كمال البلاغة في الرد والإقناع والبرهان.

فقد مشى أُبيّ بن خلف إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظام رميم، وهو يفتّه ويذروه في الهواء، وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: نعم يميتك الله تعالى، ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار" وفي رواية أخرى: إن العاص بن وائل أخذ عظمًا من البطحاء ففتّه بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أيحيي هذه الله بعد ما أرى؟ قال رسول الله: نعم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك جهنم"[٢٣٧].

وقد أنزل الله تعالى فيهما : { **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠)** }[٢٣٨].

---

٢٣٥ ) انظر : السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، م س، ص ١٢٨، ١٢٩.

٢٣٦ ) المرجع السابق، ص١٢٩.

٢٣٧ ) تفسير ابن كثير، ج٣، ص٦٥٨، وانظر أيضا : السيرة النبوية، ابن هشام، المجلد الثاني، موقف أبي ابن خلف مع الرسول صلى الله عليه وسلم.

٢٣٨ ) سورة يس، الآيات ( ٧٨ – ٨٠ )

الموقفان السابقان بين الرسول ﷺ وبين أُبي بن خلف والعاص بن وائل يبرهنان على طبيعة الكفر الذي كان عليه مشركو مكة، وليست المسألة كما تقدّم في حوارهم مع الرسول، وطلباتهم الدنيوية، إنهم ينكرون أسس الإيمان بالله تعالى من بعث وحساب وجنة ونار، وهؤلاء لا ينفع معهم أي إقناع مادي، لأن قلوبهم مغشاة بالكفر، وعيونهم مظلمة عن الحق، لذا جاءت إجابة الرسول عكس ما يتوقع القائل فيحاوره بالعقل، ولكن لا حوار يصلح مع هذه القلوب المقفلة، وإنما ثبات اليقين، ورسوخ الإيمان، وقد ظهرا في رد الرسول بثقة، حيث أكد للاثنين أن الله سيميتهما ثم يحييهما ثم يدخلهما النار، وصدق الرسول ﷺ، فقد ماتا كلاهما دون إيمان، وإن أمن من خرج من أصلابهم، مثل إيمان عمرو بن العاص بن وائل ﷺ

وقد نزلت الآية الكريمة المذكورة، تقدم الرد بإقناع، فإن الله يحيي العظام وهي نخرة بالية، فهو خلقها في المرة الأولى، وسيعيد تكوينها ثانية، وهذا أهون عليه ثم قدّمت الآية البرهان: فإن الله خالق الشجر الأخضر الذي يجف ثم يصبح حطبًا تُشعَل به النار، فالذي "أخرج هذه النار من من هذا الشجر، قادر على أن يبعثه" [٢٣٩]، وبالطبع فإن البرهان المقدم من الآية بسيط للعقل، وحينما ردَّ الرسول بثقة ويقين على الكافرين، فإن القرآن تكفل بالرد العقلاني، ليوضح أن الأساس في الأمر الإيمان بالله تعالى: خالقنا في أولنا، ومحيينا يوم البعث.

– ويذكر أيضًا: أن قريشًا اجتمعت يومًا فقالوا: انظروا أعلَمَكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرّق جماعتنا، وشتت أمرنا وعاب ديننا، فليكلمه، ولننظر ماذا يرد عليه. فقالوا: ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة. فقالوا: أنت يا أبا الوليد. فغدا "عتبة بن ربيعة العبشمي" إلى الرسول، وعرض عليه مثلما عرض عليه كفار مكة، فقال ﷺ: لقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني، فقرأ رسول الله ﷺ أول سورة فصّلت: { **حم(١) تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ**

٢٣٩ ) تفسير ابن كثير، ج٣، ص٦٦٠، عن قتادة.

حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) }[٢٤٠] إلى قوله تعالى { فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ }[٢٤١] فأمسك عتبة بفيه (بفم الرسول)، وناشده الرحم (صلة القرابة بينهما) أن يكف عن ذلك، فلما رجع عتبة سألوه عن ذلك، فقال: والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر، يا معشر قريش، أطيعوني فاجعلوها بي، خلّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لكلامه الذي سمعتُ نبأ، فإن تصبه العرب (تضره وتحاربه) فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فعزُّه عزُّكم، فقالوا: لقد سحرك محمد. فقال: هذا رأيي[٢٤٢] وفي رواية أخر: يقول عتبة لقومه: "فأمسكت بفيه (فم الرسول) وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب. وفي رواية ثالثة أن الرسول ﷺ انتهى في تلاوته إلى السجدة {واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون}، فسجد عتبة، ثم قال ﷺ: "قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك" [٢٤٣].

ما أروع هذا الموقف ! إنه موقف اليقين الكامل، أمام رجل من المشركين خبير في السحر والكهانة والشعر، وقد سمع القرآن فبهر بإعجازه البلاغي والعقلي، وهو خبير في الشعر والفنون اللغوية العربية. وقد شهد هذا الرجل المشرك للنبي محمد بشهادات عدة: إنه صادق لا يكذب أبدًا، وليس بشاعر ولا كاهن ولا ساحر. ويقينه بقوة القرآن وتأثيره العظيم في النفس، بدليل سجوده عندما وصل الرسول إلى السجدة، ثم علمه أن دعوة محمد ناجحة لا محالة، ذلك أن اليقين الكبير، والإيمان الراسخ الذي رآه عتبة على الرسول، وقوة الرسالة القرآنية، وروعة بيانها، ومتانة عقيدتها، كافية لغزو القلوب كيفما كانت.

---

٢٤٠ ) سورة فصلت، الآيات ( ١-٦ ).

٢٤١ ) سورة فصلت، الآية ١٣.

٢٤٢ ) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، م س، ص٦٣. والقصة بطولها في السيرة النبوية لابن هشام، ج٢، باب "زعماء قريش تفاوض الرسول ﷺ".

٢٤٣ ) ابن كثير، ج٤، ص١٠٧، وفيه القصة التي ذكرها ابن هشام أيضا، والآية من سورة فصلت، رقم ٣٧.

وقد جاء رد النبي ﷺ بالآيات القرآنية لأن الرجل مثل عتبة (أبا الوليد) لا ينفع معه إلا قوة القرآن، وهذا ما حدث بالفعل.

وبمناسبة الشعر، فإن الرسول ﷺ لم يكن يقول الشعر ولا يتمثل به، مصداقا للآية الكريمة: { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ }[٢٤٤]، حتى لا يُقال عنه إنه مؤلف آيات القرآن الكريم ببلاغته الشعرية، والقرآن ليس بشعر، وإنما هو شكل أدبي معجز في نظمه وتعاليمه وما حواه، وما زال العلماء والبلغاء منكبين على درسه حتى يومنا، وفي كل يوم هنا الجديد المعجز الذي تكشفه آيات القرآن.

وهناك شهادة من أحد صناديد الكفار، وهو أبو جهل "عمرو بن هشام" حيث سأله ابن أخته "المسور بن مخرمة": يا خال، هل كنتم تتهمون محمدًا بالكذب قبل أن يقول مقالته؟ فقال: والله يا ابن أختي، لقد كان محمد وهو شاب يدعى فينا الأمين، فلما وخطه الشيب لم يكن ليكذب. قلت: يا خال، فلم لا تتبعونه؟ فقال: يا ابن أختي، تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرفَ؛ فأطعموا وأطعمنا، وسقوا وسقينا، وأجاروا وأجرنا، فلما تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي، فمتى نأتيهم بهذه"[٢٤٥].

توضح هذه الشهادة بُعدًا آخر في صد كفار مكة دعوة الرسول ﷺ وهو العصبية القبلية، فقد حقدت العشائر المقيمة في مكة المكرمة، على بني هاشم، عشيرة النبي ﷺ المكانة العالية التي نالوها قبلاً، فهم أهل الطعام والسقيا، والحرب والشجاعة، فكيف يخرجون نبيًا مثل بني هاشم؟ إن العصبية القبلية كانت تغشى القلوب، وتسيطر على النفوس، وتحيل الأمر من حوار عقلاني إيماني إلى عصبية بغيضة، تعمي الأفئدة وتظلم العقول.

من ناحية أخرى، فقد شهد أبو جهل لمحمد بالصدق والأمانة، وهذه شهادة عظيمة، فلا يستقيم نبي كذاب وهي نفس شهادة عتبة بن ربيعة.

---

٢٤٤ ) سورة يس، الآية ( ٦٩ ).

٢٤٥ ) جلاء الإفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، ابن قيم الجوزية، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، ص٩٤.

## ▪ الموقف الرابع: شهادة هرقل في شخص الرسول ﷺ

هذه شهادة لهرقل قيصر الروم، وهي الدولة الأكبر في عهد الرسول ﷺ، حيث أرسل الرسول برسالة إلى هرقل، يدعوه فيها إلى الإسلام، وقد حدث حوار بين هرقل ملك الروم، وأبي سفيان بن حرب، زعيم مشركي قريش، ونظرا لدقة وعمق ما قيل في هذا الموقف، فمن المهم ذكر النص -رغم طوله- حسبما جاء في صحيح البخاري حتى يتمعن القارئ في دلالات شهادة هرقل مع أبي سفيان بن حرب، وهذا ملك الروم وقيصرهم، وذاك زعيم قريش:

- عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ، اَخْبَرَهُ أن أبا سفيان بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ ــ وَكَانُوا تُجَّارًا بِالشَّأْمِ ــ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سفيان وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَقَالَ أبو سفيان فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا. فَقَالَ اَدْنُوهُ مِنِّي، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ، فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ. ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ قُلْ لَهُمْ أَنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ. فَوَاللَّهِ لَوْلاَ الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ".

فقد كان هرقل، قيصر دولة الروم، موجودًا في مدينة إيلياء في بلاد الشام، فعرف بوجود قافلة تجارية من قبيلة قريش في مكة المكرمة، فدعا هرقل أفراد هذه القافلة من العرب، ثم أراد أن يتعرف على الأقرب نسبًا من النبي محمد ﷺ، فتقدم إليه أبو سفيان بن حرب، وهو من وجهاء قريش، وكان لا يزال على الكفر، ويناصب الرسول محمدا العداء، وكان الرسول وقتها في المدينة المنورة، وهنا طلب هرقل من الترجمان أن يجعل باقي العرب المرافقين لأبي سفيان خلف زعيمهم، ليعترضوا عليه إذا كذب في شيء، وهذا دليل على رغبة الرجل في الاستيثاق من كلام أبي سفيان، ورده من قبل قومه إذا أخطأ، والرواية هنا على لسان أبي سفيان، الذي منعه الحياء من قومه، ومن المجلس أن يغير أقواله، فالتزم الصدق في كل ما قيل.

نعلم أن هرقل كان على ديانة النصرانية، وهو ذو علم وحكمة وبصيرة، وهذا ما سيتضح في الحوار المكثف بينه وبين أبي سفيان، يقول أبو سفيان:

-" ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَن قَالَ كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ قُلْتُ هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ. قَالَ فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ قُلْتُ لاَ. قَالَ فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ لاَ. قَالَ فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ فَقُلْتُ بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ. قَالَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ قُلْتُ بَلْ يَزِيدُونَ. قَالَ فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَأَنْ يَدْخُلَ فِيهِ قُلْتُ لاَ. قَالَ فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ قُلْتُ لاَ. قَالَ فَهَلْ يَغْدِرُ قُلْتُ لاَ، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لاَ نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا. قَالَ وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ. قَالَ فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ قُلْتُ نَعَمْ. قَالَ فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ قُلْتُ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ. قَالَ مَاذَا يَأْمُرُكُمْ قُلْتُ يَقُولُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ".

الملاحظ أن أسئلة هرقل، كانت دقيقة للغاية، فقد سأل عن نسب الرسول ومن أعلم بالأنساب مثل أبي سفيان! فأخبره أبو سفيان أنه ذو نسب عظيم، وهو نسب يمتد إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام[٢٤٦]، وأنه رغم ذلك، فليس من آباء الرسول ولا أجداده من ملك، وأن من يؤمن بدعوته هم الضعفاء من الناس، ومن آمن به لا يتراجع عن إيمانه، وهم في ازدياد رغم الحرب السجال بين الكفار والمسلمين. ثم شهد أبو سفيان أن دعوة الرسول تنادي بتوحيد الله، ثم بالصلاة وحسن الخلق والعفة في القول والسلوك.

لقد قدّم أبو سفيان صورة شاملة عن الرسول ﷺ، وهي صورة صادقة، توضح أن أبا سفيان وهو مشرك، كان يعلم جيدًا طبيعة رسالة محمد، وما يدعو إليه من مكارم الأخلاق، وصدقه وأمانته، وأن الحرب السجال التي كانت بين كفار مكة والنبي في المدينة هي حرب على غير أساس عقلي أو أخلاقي أو ديني، فقد

٢٤٦ ) راجع : زاد المعاد، ج١، ص٢١ ويستشهد بموقف أبي سفيان مع هرقل المذكور أعلاه. وانظر أيضا : نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، ص٩، والسيرة النبوية لابن هشام، باب النسب الذكي للرسول.

سلّم زعيم قريش بعظم رسالة محمد، وعظم نسبه، وأن دعوته في ازدياد، وأن من يؤمن بالإسلام لا يتخلى عنه مهما حدث له، وهذا يعني فيما يعني: ثبات موقف الرسول الحركي، وثبات أتباعه، وتكاثرهم، وأن دعوته تغزو القلوب بيسر، فإذا غزت القلوب لا تغادرها، ورغم أن الإسلام ينادي أن يترك الناس ديانة آبائهم وهي الشرك والكفر بالله تعالى، إلا أن الإسلام يأمر بالصلة – على حد قول أبي سفيان – أي صلة الرحم، وهذا دليل على أن القضية ليست مقاطعة الآباء، وإنما اتخاذ موقف من العقائد التي كانوا يؤمنون بها، وهو موقف يريد الصلاح للناس، وليس قطيعة الرحم. ولنكمل ونرى:

– "فَقَالَ (هرقل) لِلتَّرْجُمَانِ قُلْ لَهُ سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، قُلْتُ فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ، وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لاَ تَغْدِرُ، وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ. فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ".

فقد علل هرقل في تعقيبه على كلام أبي سفيان، بتعليل جمع بُعدين: البُعد العقلي، والبُعد الديني المستقى من كتب أهل الكتاب السابقين، ثم قدَّم بشارةً.

أما البُعد العقلي:

– فإن الرسول لم يكن كذابًا، واشتهر بالصدق، وهذا ما يجعله ذو مصداقية عالية عند الناس، وفي نفس الأمر، فإن الصادق عاقل ذو إيمان، فلا يكذب على الله، ويصدق الناس.

– لم يحدث أن قام أحد أبناء مكة أو قريش بادّعاء النبوة، حتى يقلّده الرسول فيما يقول، فهو أول من دعا بالنبوة في قومه.

– ليس لآباء محمد ﷺ ملك أو سلطان، حتى لا يظن أنه أراد أن يطالب بملك آبائه، فاتخذ النبوة وسيلة لذلك.

أما البعد الديني وهو مستقى من اطلاع هرقل على الكتب السماوية السابقة فيبدو في تأكيده على:

– أن كل رسول مبعوث في قومه فهو ذو نسب طيب، معروف الأصل، وتلك حكمة عظيمة، حتى لا يكون دخيلاً أو مدعيًّا يطلب الشهرة والصيت من دعواه.

– أن الرسول محمد يتبعه ضعفاء الناس، وهذه سُنَّة الأنبياء في الأرض، يؤمن بهم الضعفاء وأراذل الناس.

– وأن من يؤمن لا يرتد بعد إيمانه، ذلك أن للإيمان حلاوة لا يعرفها إلى من ذاقها، وولجت قلبه، فلا يرتد عنها.

– وأن من أخلاق الرسول الأمانة وحفظ العهد، فلا يعرف الغدر والخيانة وهي من أخلاق الرُسل، أمَّا أخلاق الملوك وطُلَّاب السلطة والمنصب فتحكمهم اعتبارات المصلحة والسياسة لا الأخلاق والهداية.

– أن ما يدعو إليه الرسول ﷺ هي دعاوى الرسل والأنبياء جميعًا، فهم من مشكاة واحدة، يعرفها من قرأ الديانات السماوية، وطالع كتبها، فالتوحيد والأخلاق الحسنة وصلة الرحم لم يختلف عليه أحد من المبعوثين من عند الله.

كانت البشارة التي قدّمها هرقل:

– أن محمدًا سيمتد ملكه حتى موطن قدميه هاتين، وهو ما تحقق بالفعل، سواء كان يقصد بقدميه أرض إيلياء (بيت المقدس) بفلسطين[٢٤٧]، أو مُلكه هو، وهذا ما تمَّ حيث سيطر المسلمون على معظم بلدان دولة الروم في الشام وشمال أفريقية، ثم فتحوا عاصمة ملكهم الكبرى مدينة القسطنينية على يد محمد الفاتح.

– "ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ. سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ، اَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الاَرِيسِيِّينَ و{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لاَ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} قَالَ أبو سفيان فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ وَأُخْرِجْنَا، فَقُلْتُ لأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ. فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الإِسْلاَمَ [٢٤٨].

فحين قرأ هرقل كتاب رسول الله ﷺ كانت المعلومات لديه مكتملة، من خلال حواره مع أبي سفيان، ونلاحظ أن كتاب الرسول إلى هرقل كان يتضمن القيم العليا المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب من النصارى وهي:عبادة الله الواحد الأحد، دون أن يعظم الناس بعضهم البعض. وقد اقتنع هرقل بأن محمدًا نبيًا، ولكنه خشي من قومه، وفضَّل أن يظل في موضعه، وهذا ما أشار إليه الرسول في كتابه، فهو سيتحمل إثم قومه والشعوب التي يحكمها، وهكذا الملوك، تكون حساباتهم دنيوية، ويخضعون لنفوذ من حولهم.

---

٢٤٧ ) راجع : معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، دار بيروت، ١٣٧٦هـ، ١٩٥٧م. رقم ١٦٧. وفيه إشارة إلى أن إيلياء اسم لامرأة بنت بيت المقدس، وقد ورد في الحديث الشريف : وروي عن كعب عن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) أنه قال: " لا تسموا بيت المقدس إيلياء، ولكن سموه باسمه فإن إيلياء امرأة بَنَت المدينة"

٢٤٨ ) صحيح البخاري، ج١، كتاب بدء الوحي، رقم ( ٧ )، ص١٦- ١٨.

على الجانب الآخر، فقد أدرك أبو سفيان وهو راجح العقل، أن ملك ابن أبي كبشة (إشارة إلى الرسول محمد) قد وصل شأنًا عظيمًا، ولكن الهداية من الله، ولم يزل الأمر في قلب أبي سفيان حتى أسلم عند فتح مكة [٢٤٩] مقتنعًا بعظم رسالة الإسلام التي حملها نبي الإسلام.

وهكذا كانت رؤى بعض المشركين وأحد الملوك من أهل الكتاب حول دعوة الرسول ﷺ وشخصه الكريم.

opeikan.com

٢٤٩ ) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، ص ٢٥٨.

# المبحث الثاني
# الحوار مع البسطاء وحديثي الإسلام

يتألف أي مجتمع من أناس مختلفي المستويات المعرفية والعقلية، ومن المهم أن يتحاور أصحاب الرسالات والدعوات مع مختلف شرائح المجتمع، وهذا ما فعله الرسول ﷺ، حيث كان يجالس الكبير والصغير، المرأة والطفل والشيخ، ويتحاور مع كل هؤلاء. وتعد شريحة البسطاء من الناس من أهم الشرائح التي حاورها الرسول ﷺ، نظرًا لأنها تمثِّل الغالبية من الناس في أي مجتمع، خاصة المجتمع في الجزيرة العربية، وهو مجتمع بدوي قبلي. فقد أولى الرسول عنايته البالغة بهذه الفئة، وكان حواره مع أفرادها يتناول القضايا الأساسية في الإسلام، خاصة مسائل التوحيد، فهي الأساس في دعوة الرسول ﷺ وهي القضية الكبرى في مناقشات الرسول، منذ أولى أيام بعثته في مكة المكرمة ثم في هجرته إلى المدينة المنورة، حيث لم ينقطع حوار الدعوة، مثلما لم ينقطع حوار التوحيد، ونبذ الشرك، وتطهير القلوب من الوثنية والشرك، ولن تنفصل تعاليم الإسلام الأساسية عن حوار العقيدة، لذا نجد الكثير من الأحاديث الشريفة ربطت ما بين الإيمان والعمل بأركان الإسلام، واجتناب نواهيه.

وقد دارت حوارات عديدة بين الرسول ﷺ والبسطاء حول هذه القضية، ونرى في هذا الباب حوار الرسول معهم في أمكنة وأزمنة متعددة، وبكيفيات مختلفة، يمكن أن نعرض بعضًا منها:

– عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ.. كَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ فَيَسْأَلَهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ قَالَ "صَدَقَ". قَالَ فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ قَالَ "اللَّهُ". قَالَ فَمَنْ خَلَقَ الأَرْضَ قَالَ "اللَّهُ". قَالَ فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ. قَالَ "اللَّهُ".

قَالَ فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَخَلَقَ الأَرْضَ وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ آللَّهُ أَرْسَلَكَ قَالَ "نَعَمْ". قَالَ وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا. قَالَ "صَدَقَ". قَالَ فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ "نَعَمْ". قَالَ وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِي أَمْوَالِنَا. قَالَ "صَدَقَ". قَالَ فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ "نَعَمْ". قَالَ وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سَنَتِنَا. قَالَ "صَدَقَ". قَالَ فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ "نَعَمْ". قَالَ وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً. قَالَ "صَدَقَ". قَالَ ثُمَّ وَلَّى. قَالَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ وَلاَ أَنْقُصُ مِنْهُنَّ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ" (٢٥٠).

إننا أمام مشهد حواري جذَّاب، فهذا أحد الأعراب، قدم من قبيلة في البادية، وراح يحاور الرسول ﷺ، والرسول يجيب، ونرى أن الحوار بدأ بالقضايا العقدية: خالق السماء والأرض والجبال، ثم فرائض الإسلام، وصولاً إلى قرار البدوي أن يلتزم بهذه الفرائض، متلما التزم بالعقيدة، وقد صدَّق الرسول على ما قاله البدوي، وأكد ﷺ أنه سيفلح إن كان صادقًا، والمقصود بالفلاح: الفوز برضوان الله والجنة، وهو تعبير عام، يشمل السعادة في الدنيا والآخرة.

في الحديث السابق أمور عدة:

إن الأعرابي جاء ليستوثق مما قاله الرجل الذي بعثه الرسول محمد ﷺ، فقد كان الرسول يبعث إلى كل قبيلة أو قرية أو مدينة من يعلمها أمور دينها، فهذه أسئلة دالة على علمه المسبق بحقائق الإسلام وأركانه، وقد كان الحوار للاستيثاق مما نقله مندوب الرسول محمد إلى هذه قبيلة البدوي، لذا تكررت عبارة "زَعَمَ رَسُولُكَ".

كما وردت عبارات البدوي بصيغة استفهامية، دون ذكر أداة استفهام، ولكن الخطاب بصيغة السؤال وهي صيغة تعني الأداة (هل أو الهمزة)، وقد حذفت لأنها معلومة للسامع. الجديد في الجواب، أن الرسول لم يجب –على أغلب الأسئلة–

٢٥٠ ) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، رقم ( ١١١ ).

بلفظة "نعم"، وإنما بالفعل الماضي "صدق"، وهو يشمل الإيجاب، والتصديق، والتأكيد، بينما جاءت إجابته بنعم على سؤالين فقط.

كما نلاحظ أن ما ذكره مبعوث رسول الله إلى القبيلة يتضمن المعلوم من الإسلام بالضرورة، وهي حقائق العقيدة، وأن الكون له خالق عظيم، واحد أحد، ثم ذكر أركان الإسلام: الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج. وهذا دليل على أن الرسول كان يعرض العقيدة والعبادة في آن، ومن التزم بهذه الأركان، وصحّت عقيدته، فهو سينال الفلاح في الدنيا (سعادة النفس وهناءها)، وفي الآخرة رضوان الله تعالى، وجناته.

وقد صدَّق الرسول على تعقيب الأعرابي، بأن لا يزيد ولا ينقص، في إشارة إلى الالتزام، وقد جاء لفظ الرسول "إن صدق"، إيضاحًا بأن مفهوم الصدق يشمل الالتزام بالنية والقول والفعل.

– عَنْ أَبِي سُهَيْلٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ، يَقُولُ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرُ الرَّأْسِ نَسْمَعُ دَوِيَّ صَوْتِهِ وَلاَ نَفْقَهُ مَا يَقُولُ حَتَّى دَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلاَمِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ". فَقَالَ هَلْ عَلَىَّ غَيْرُهُنَّ قَالَ "لاَ. إِلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ". فَقَالَ هَلْ عَلَىَّ غَيْرُهُ فَقَالَ "لاَ. إِلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ". وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الزَّكَاةَ فَقَالَ هَلْ عَلَىَّ غَيْرُهَا قَالَ "لاَ. إِلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ" قَالَ فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ وَاللَّهِ لاَ أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلاَ أَنْقُصُ مِنْهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ"(٢٥١).

يفرّق هذا الحديث بين الفرض والتطوع، والتطوّع يعني أداء النافلة والسنن وأعمال الخير التي يمكن أن يقوم بها المسلم. ونلحظ أن الرجل كان يسأل عن الإسلام، أي الأعمال التي تُظهِر عبادات المسلم، وتميزه بالإسلام دينًا ومنهجًا وسلوكًا، وما نلاحظ التدرج في الفرائض: خمس صلوات في اليوم والليلة، وصيام رمضان، والزكاة، ولم يذكر الرسول الشهادة، لأن الواضح من سياق الحديث أن

٢٥١ ) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، رقم ( ١٠٩ ).

الرجل مسلم، وربما يكون حديث عهد بالإسلام، أو بسيط الفهم ومحدود الإدراك، وهذا يستوجب خطابًا: بسيطًا، محدد الكلمات. كما لم يشر الرسول إلى الحج وهو ركن خامس في أركان الإسلام، وربما يكون الحديث ذُكِرَ في وقت لم يفرض الحج فيه على المسلمين بعد، أو لأن الحج ركن معروف شهير، فأراد الرسول التركيز على العبادات الأساسية التي تهم المسلم في اليوم والشهر والسنة، وتشمل حياة المسلم.

الجديد في هذا الحديث أن الرسول كان يكرر عبارة "إلا أن تطوّع" في إشارة إلى أهمية التفرقة بين الفرض والنافلة، فربما يختلط الأمر على رجل حديث المستجد في الدين أو بسيط الفهم فيخلط ما بين النافلة والفرض فيما يشاهده من عبادات المسلمين.

كما ختم الرسول ﷺ الحديث بعبارة "أفلح إن صدق"، وهي تحمل نفس الدلالة التي ذكرت في الحديث الأول وهي دلالة إخلاص النية لله تعالى والالتزام بالعبادة.

– ونفس الأمر نجده في هذا الموقف: فيما يرويه الصحابي الجليل: أنس بن مالك ﷺ: بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد، دخل رجل على جمل، فأناخه في المسجد ثم عقله، ثم قال لهم: أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متكىء بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكىء. فقال له الرجل: ابن عبد المطلب؟ فقال له النبي ﷺ: قد أجبتك. فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد علي في نفسك. فقال: سل عما بدا لك. فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: اللهم نعم. قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: اللهم نعم. قال أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: اللهم نعم. قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: اللهم نعم. فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة، أخو بني سعد بن بكر" (٢٥٢).

٢٥٢ ) صحيح البخاري، ج١، كتاب العلم، ص ٣٩، رقم ٦٣.

الحديث السابق، يمثل زاوية أخرى لما تقدّم من أحاديث، مع تعميق محاور إيمانية أخرى. ولكن نلحظ حجم الصراحة التي كان عليها الرجل القادم على ناقته في المسجد، وهي صراحة مبدئية، بدأت من الاستيثاق من شخص الرسول، بالسؤال عن "محمد" الإنسان، ثم التأكد من أنه ابن عبد المطلب، جد الرسول الذي حظي بمكانة كبيرة بين الناس لمواقفه العديدة الشهيرة؛ حفز زمزم، ومواجهة حملة أبرهة الأشرم وغيرهما. ومن ثم بدأ بوضع قاعدة لحواره: "إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد علي في نفسك"، أي سيسأله بصراحة ويرجو ألا يغضب الرسول أو يتضايق من تساؤلاته. وقد أفسح الرسول المجال أمامه، فتساءل مركِّزًا على: بعث النبي إلى جميع الناس وهو مفهوم عالمية الدعوة الإسلامية، دون جنس أو عرق أو وطن أو زمان. وعن الصلوات المفروضة، وعن الصوم، والصدقة المفروضة (الزكاة). ثم يختم مقولته أنه مؤمن بما جاء به الرسول، وسيخبر قومه، موضحًا أصل نسبه ونسب قبيلته.

الموقف دال على اتساع صدر الرسول ﷺ، وأنه يهتم في ذلك بالجميع، مهما تكررت الأسئلة، وتعدد السائلون، ونجد أن جواب الرسول بصيغة توكيدية "اللهم نعم" وهي صيغة بها لفظ الدعاء "اللهم" ثم الإيجاب "نعم"، فواضح أن الرجل موقن بالله تعالى، وأنما أراد التوثيق. وسيتولى إبلاغ قومه.

– عن أَبي أَيُّوبَ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا، عَرَضَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي سَفَرٍ . فَأَخَذَ بِخِطَامِ نَاقَتِهِ أَوْ بِزِمَامِهَا ثُمَّ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ –أَوْ يَا مُحَمَّدُ – أَخْبِرْنِي بِمَا يُقَرِّبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا يُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ . قَالَ فَكَفَّ ﷺ ثُمَّ نَظَرَ فِي أَصْحَابِهِ ثُمَّ قَالَ " لَقَدْ وُفِّقَ – أَوْ لَقَدْ هُدِيَ – قَالَ كَيْفَ قُلْتَ". قَالَ فَأَعَادَ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "تَعْبُدُ اللَّهَ لاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ، دعِ النَّاقَةَ" (٢٥٣).

هنا نجد مشهدًا حواريًا، حدث بشكل مفاجئ، ضمن الحوار الموصول بين الرسول ومحاوريه. فالرسول على راحلته سائر، ويوقفه رجل، ويطلب منه أن

٢٥٣ ) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، رقم ( ١١٣ ).

يخبره عما يقربه من الجنة ويبعده عن النار. إنه سؤال بسيط، ولكنه الأساس في الدعوة الإسلامية كلها، إنه يسأل عن طريق الخير والجنة. كان الموقف عفويًا، ولكن الرسول لم يطلب من الرجل أن ينتظر حتى يترجل من فوق الناقة، أو يؤجل الجواب إلى حين، وإنما أجابه فور الاستفسار، معلقا لمن حوله "لقد وفق، لقد هدي" ذلك أن استفسار هذا الرجل البسيط يعبر عن جوهر الدين، وروح العبادة؛ ألا وهو سبل الخير والجنة.

واضح من سؤال الرجل أنه مسلم، بسيط، معلوماته في الدين قليلة، وهذا ما جعل الرسول يوجز القول معددا سبل النجاة له: توحيد الله، إقامة الصلاة، إيتاء الزكاة، صلة الرحم. الجديد عما سبق أن التأكيد على صلة الرحم، وتعزيز العلاقة مع الأقارب والأصهار، فلا قطيعة معهم، وإنما حب ومودة وإيثار.

لقد أوقف الرجل الناقة وهو يشد خطامها، ثم طلب الرسول من الرجل أن يدع الناقة بعدما أجابه، والرجل يخاطب الرسول "يا محمد"، وهذا يتكرر في مواضع عدة في هذا الحديث وفي غيره، دون أن ألقاب مسبقة، وهو رسول الله وزعيم المسلمين وقائدهم، والرسول يقبل هذا الخطاب، من أي فرد، وفي أية حال، راكبًا أو قاعدًا أو ماشيًا، إنه مدرسة متحركة.

– عن عبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، قَالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " مَنْ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَابْنُ أَمَتِهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ؛ أَدْخَلَهُ اللَّهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ " (٢٥٤).

هذا الحديث لم يُذكر في إطار حواري مباشر، أي لم يأتِ جوابًا عن سؤال أو في نقاش مع رجل، ولكنه جاء إخبارًا مباشرًا من الرسول ﷺ إلى مستمعيه، وهذا يستلزم الطبيعة الإخبارية، ولكنه في باطنه أساس مهم في الحوار مع أهل الكتاب، وقد بدأ الحديث بلفظة "من قال..."، وهذا يعني توجيه سام إلى القول، والقول هنا

٢٥٤ ) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، رقم ( ١٤٩ ).

لا يشمل الترديد باللسان، وإنما إيمان القلب بالمنطوق، وقد شمل الحديث أساس العقيدة الإسلامية: الإيمان بالله وحده وبنبوة محمد ﷺ، ثم نبوة عيسى، وبشريته، وأنه ابن للسيدة مريم العذراء، وضعته بكلمة من الله وروح منه، وهذا جوهر المنظور الإسلامي إلى نبوة عيسى عليه السلام، ثم أن الجنة حق والنار حق.

عزَّز الحديث السابق –زيادة على التوحيد – قاعدتين: الإيمان بنبوة عيسى، وهذا جزء من يقين المسلم بالكتب والديانات السماوية والنبوات السابقة عامة، وديانة عيسى عليه السلام خاصة، في انفتاح واضح على أهل الكتاب، خاصة النصارى منهم. ثم ركز الحديث على الإيمان المطلق (الحق) بالجنة والنار، وهذا أساس ركين في عقيدة المسلم، فالجنة/ أمل المؤمن، والنار/ خوف المؤمن، كلتاهما من الغيبيات، لم نرهما، ولكن اليقين بهما أساس في العقيدة، فهما باب الأمل، وباب الخوف، ومن أيقن بهما، وتمثلهما في قلبه، وسلوكه، كانتا واقعين أمامه، يعمل طمعًا في لذائذ الجنة الأبدية، وخوفًا من سرمدية العذاب في النار.

– عنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُؤَاخَذُ الرَّجُلُ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَالَ مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا كَانَ عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أُخِذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ [٢٥٥].

كان سؤال الرجل بسيطًا: هل يُحاسب المسلم إذا أسلم على ما قدّم في جاهليته من آثام ومعاص. وقد أجاب الرسول ﷺ أن هذا يتوقف على ما أعطاه العبد المسلم من أعمال صالحة أو طالحة، فإذا كان صالحا، غفر الله حقبة الجاهلية، وقبل ما عمل في الإسلام، لأن الإسلام يجبّ ما قبله، أما إذا كان طالحا في إسلامه، فهو مؤاخذ على أعمال الحقبتين: جاهليته وإسلامه.

وفي نفس هذا السياق، يكون الحديث الآتي:

– عَنْ مَسَرَّةَ بْنِ مَعْبَدٍ، مِنْ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ أَبِي الْحَرَامِ مِنْ لَخْمٍ عَنِ الْوَضِينِ، أَنَّ رَجُلًا، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ وَعِبَادَةِ أَوْثَانٍ فَكُنَّا

٢٥٥ ) سنن الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن برهام الدارمي السمرقندي كتاب المقدمة، نشر موقع -www.al eman.com ( نداء الإيمان)، مكتبة التراث الإسلامي رقم(١)

نَقْتُلُ الْأَوْلَادَ وَكَانَتْ عِنْدِي ابْنَةٌ لِي فَلَمَّا أَجَابَتْ وَكَانَتْ مَسْرُورَةً بِدُعَائِي إِذَا دَعَوْتُهَا فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَاتَّبَعَتْنِي فَمَرَرْتُ حَتَّى أَتَيْتُ بِئْرًا مِنْ أَهْلِي غَيْرَ بَعِيدٍ فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا فَرَدَّيْتُ بِهَا فِي الْبِئْرِ وَكَانَ آخِرَ عَهْدِي بِهَا أَنْ تَقُولَ يَا أَبَتَاهُ يَا أَبَتَاهُ فَبَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى وَكَفَ دَمْعُ عَيْنَيْهِ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْزَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ كُفَّ فَإِنَّهُ يَسْأَلُ عَمَّا أَهَمَّهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ أَعِدْ عَلَيَّ حَدِيثَكَ فَأَعَادَهُ فَبَكَى حَتَّى وَكَفَ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْهِ عَلَى لِحْيَتِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ وَضَعَ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ مَا عَمِلُوا فَاسْتَأْنِفْ عَمَلَكَ [٢٥٦].

هذه لوحة إنسانية عالية الشجن، رجل من المسلمين، يصف حاله في الجاهلية، حين كان يئدون البنات وهن أحياء، وكما ذُكِر في القرآن الكريم **{وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ}**[٢٥٧]، لقد كان لهذا الرجل المسلم ابنة صغيرة، كانت متعلقة بأبيها تعلقاً كبيرًا، إذا دعاها أجابته وهي سارة، وكبرت البنت، والأب يحتفي بها دائمًا، ولكن غلبت عليه الجاهلية، وتقاليدها، حين كانوا يئدون البنات، خوفا من العار إذا أسرت في الحرب، وصارت جارية تباع وتسترق وتستباح للمنتصر. فيناديها الرجل، وتذهب معه بالقرب من أحد الآبار، وهناك يلقيها في البئر، وتسقط البنت وهي تصرخ "يا أبتاه، يا أبتاه". لقد تحجر فؤاده، وهو يلقي فلذة كبده، خاضعًا لعادات فاسدة.

أبكت القصة الرسول ﷺ بكاءً شديدًا، حتى اخضلت لحيته، ولام الصحابة الرجل على إحزانه الرسول، ولكن الرسول يطلب من أن يعيد القصة، لأن الرجل يسأل عن شيء أهمّه (شغل باله وأحزنه)، فيريد أن يفضي بمكنون خاطره إلى الرسول، يعيد الرجل القصة ويتجدد بكاء النبي الشديد، ثم يخبر الرجل أن الله غفر لأهل الإسلام ما عملوا في جاهليتهم، فليستأنف عمله الصالح في إسلامه، مطمئناً إلى اتساع مغفرة الله تعالى.

---

٢٥٦ ) سنن الدارمي، كتاب المقدمة، رقم ( ٢ )

٢٥٧ ) سورة التكوير، الآيتان ( ٨، ٩ ).

جاء ذكر الرجل لقصته من باب السؤال غير المباشر، خوفا أن تكون أفعاله في الجاهلية محسوبة عليه، وأراد أن يخرج مكنون همه إلى الرسول، لعله يجد مخرجًا، وقد بكى الرسول ﷺ مُدينًا الفعلة، ونرى كيف كان أهل الجاهلية منزوعي الرحمة، غلاظ النفس.

وهكذا، كانت علاقة الرسول ﷺ مع البسطاء وحديثي الإسلام، علاقة حية، متجددة، تعتمد على اكتساب القلوب، وترسيخ الإيمان، والفوز بقلوب الناس مهما كان مستواهم العقلي، والثقافي، وأيا كانت منابتهم وأصولهم، إنها القلوب التي كان الرسول ﷺ يتطلع إليها دائمًا.

obeikan.com

# المبحث الثالث

# الحوار حول تقلبات النفس

لا تلبث النفس البشرية على حال واحدة من الإيمان، بل يزيد الإيمان وينقص، وتتبدل أحوال النفس بين الفرح والحزن، والنشاط والكسل، وغير ذلك من مختلف وجوه الحياة. أيضًا هناك الكثير من أحوال حياء الإنسان، وتصرفاته بشكل مضطرب في بعض مواقف الحياة، وهي تصرفات وجدت من الرسول ﷺ اهتمامًا كبيرًا، وتوجيهًا ساميًا، كذلك كان الرسول يتدخل في علاقات الناس الاجتماعية، والمواقف البسيطة التي يمكن أن تجلب السرور أو الضيق.

من أجل هذا، يأتي هذا المبحث محاولاً استكشاف جانبًا من جوانب تغيرات النفس البشرية، وبعض التصرفات الاجتماعية التي تؤثر في وحدة الصف المسلم وكيف عالجها الرسول ﷺ، وهي قضية ليست بالهينة، فقد شغلت النفوس المؤمنة، وكانت مناط أسئلة مباشرة للرسول، ومناط تعليق منه. ويمكن أن يتم تناول هذه القضية في محاور عدة.

**أولاً: وساوس النفس المؤمنة:**

وهي الوساوس التي تصيب النفس المؤمنة، نحو الله تعالى، ضمن أسئلة متدرجة وهمسات الشيطان. وقد وجدت عناية من الرسول الأعظم ﷺ، وإرشادًا وتوجيهًا ساميًا، ومن خلال استعراض العديد من المواقف الحوارية تتكشف أبعاد القضية، وهي تبدأ بهواجس عامة، يخشى المؤمن أن يذكرها، ولكن بعضهم أشار إليها دون تصريح.

– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ . قَالَ "وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ" . قَالُوا نَعَمْ . قَالَ ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمان [٢٥٨].

– وعَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: عَنِ الْوَسْوَسَةِ قَالَ " تِلْكَ مَحْضُ الإِيمان" [٢٥٩].

المقصود بالوسوسة: هواجس النفس الإنسانية، نحو الله تعالى، وكينونته، وكيفيته، ومكانه، وكيفية الخلق، وما قبل الزمن المعلوم، وما كان من عمر الكون، وكيف كان، وكيف سيكون بعد يوم القيامة. إنها وساوس تضرب العقل المؤمن، وتجعله يشطح في أبعاد كثيرة. جاء رد الرسول ﷺ مختلفًا، لقد جعل الوسوسة دليلاً إيجابيًا على الإيمان، لأن النفس المؤمنة إذا أصيبت بالوسوسة، فهذا يعني أولاً وأخيرًا أنها تفكر فيما تؤمن به، وفيما تحب، وكذلك نحن، نفكِّر دائمًا فيما نحب، وفيما نألف، ولأن المؤمن يعايش الذات الإلهية العليا في كل لحظة إذا استحضر النية في مختلف شؤون عباداته وحياته، فإنه من المنطقي أن يجنح به العقل.

جاء رد الرسول ﷺ في الحديثين السابقين إيجابيا فهذا: صريح الإيمان أو محض الإيمان. وبذلك انقلبت القضية من منظور سلبي إلى منظور إيجابي، ومن رفض القضية برمتها إلى الاعتراف الضمني بوجودها، ومن ثم الإقرار أن هذا هو الإيمان بعينه، وتلك غاية الدقة في المعالجة المضادة، أي أنه عالج الأمر بالتسليم به، ثم اعتبار ذلك علامة على الصدق والإيمان الصريح، لأن الكافر/ الملحد لن ينشغل ببساطة بوجود الله والتفكير فيه.

كما أن سؤال الناس عن هذه القضية للرسول، دال على حجم الانفتاح والحرية العقلية التي كانتا متاحتين أيام الرسول ﷺ، وتتصل بالسؤال عن كل شيء، حتى ما يعتري القلوب، ويقلقها، وليس كما يحدث الآن في بعض المجتمعات المنغلقة،

٢٥٨ ) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة، رقم ٣٥٧.
٢٥٩ ) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة، رقم ٣٥٩.

التي تتعامل مع النفس البشرية والقلوب كأنها أحجار لا تتبدل وتظل ثابتة الشكل. فقد استقبل الرسول السؤال القلق، وأجاب عنه بانفتاح، بل وتوقع أن يسأل من قبل البعض، حين تتخذ القضية أبعادا أكثر صراحة، تتعلق بالسؤال نفسه، وطرحه دائمًا.

– عن أَبي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا حَتَّى يَقُولَ لَهُ مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهِ "(٢٦٠).

– وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لاَ يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ هَذَا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ"(٢٦١).

كلا الحديثين مروي عن أبي هريرة ﷺ، ويبدو أنه كان مصاحبًا للرسول ﷺ أثناء طرح هذا الأمر، وبناء الحديث لم يكن حواريًا: سؤال وجواب كما في الحديثين السابقين على هذين، بل جاء إخبار مباشر من الرسول لمن حوله، وبناء هذين الحديثين حواري: إنه يصف الحوار المفترض/ المتوقع الذي يمكن أن يكون في النفس، وهو إما أن يكون من الشيطان، الذي يوسوس للنفس المؤمنة متدرجا معها من البسيط إلى المركب، ومن خلق الكائنات إلى خلق الله تعالى، وهنا يستعذ المسلم من الشيطان نفسه، ويمتنع عن التفكير في الأمر برمته، وهذا هو الحل النبوي.

في الحديث الثاني، يكون السؤال من الناس أنفسهم، هؤلاء المشغولون بالجدل والمراء والتفكير في غير المفيد، فيختلفوا وتختلف عقولهم ونفوسهم، في قضية إيجاد الكائنات وخلقها، ومن ثم خلق رب هذه الكائنات جميعا، وفي هذه الحالة، يكون ترديد "آمنت بالله"، لأن العبد وصل إلى مرحلة الشك، وهي مرحلة تشمل الحد الفاصل بين التفكير الإيجابي والتفكير السلبي، فالتفكير الإيجابي يتمثل في تأمل العقل المسلم في الخلق والكائنات حتى يصل منطقيًا إلى أن الله خالق كل

٢٦٠ ) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة، رقم ٣٦٢

٢٦١ ) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة، رقم ٣٦٠.

هذا. أما التفكير السلبي، فيبدأ بطرح سؤال: من خلق الله تعالى، وما يستتبع ذلك من أسئلة أخرى لا تنتهي، ولا ينتهي جدلها، لماذا ؟ لأن التفكير فيها لن يصل إلى شيء؛ يصل فقط إلى ضلال العقل، وعوار النفس، وتأرجح القلب بين الشك واليقين، ومن ثم الوصول إلى الشك المطلق.

وقد توقع أبو هريرة أن يطرح الناس هذا السؤال:

– فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "لاَ يَزَالُ النَّاسُ يَسْأَلُونَكُمْ عَنِ الْعِلْمِ حَتَّى يَقُولُوا هَذَا اللَّهُ خَلَقَنَا فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ". قَالَ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ رَجُلٍ فَقَالَ صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ قَدْ سَأَلَنِي اثْنَانِ وَهَذَا الثَّالِثُ. أَوْ قَالَ سَأَلَنِي وَاحِدٌ وَهَذَا الثَّانِي" (٢٦٢).

الحديث لم يذكر الحل للقضية، بل عرج إلى الجانب المتوقع وهو تساؤل الناس، وقد حدث، فهو يروي الحديث ومعه المتسائل الثاني أو الثالث، في إشارة إلى أن الجدل مستمر، استمرار الإيمان بالله وحده، لا شريك له.

**ثانيا: اضطراب سلوك المسلم:**

ويعني بمختلف المظاهر السلوكية التي رصدها الرسول ﷺ في تصرفات من حوله، حيث لم يكن يدع الأمور تمرُّ مرَّ الكِرام، بل يغتنم الفرصة ليرشد ويوجه في حوار لطيف، وإرشاد هادئ.

– عن أبي واقد الليثي: أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما: فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر: فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبًا، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه (٢٦٣).

---

٢٦٢ ) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة، رقم ٣٦٤.

٢٦٣ ) صحيح البخاري، ج١، كتاب العلم، ص ٤٠، رقم ( ٦٦ ).

إننا أمام موقف يحدث كثيرًا في الحياة، وفي تجمعات طلب العلم، موقف يعبر عن طبيعة الشخصيات وكيف تتصرف في الحياة. فقد كان الرسول ﷺ وصحابته الكرام في مجلس علم وإفادة، فأقبل ثلاثة من الناس، أحدهم نظر للحلقة، ثم عاد بظهره وانصرف، والثاني وجد مكانًا صغيرًا (فُرجة) فجلس يستمع، والثالث جلس خلف الحلقة. لم يفوت الرسول الفرصة، فقد كان القوم جالسين ناظرين للموقف، فانتظر الرسول حتى فرغ من حديثه، ثم علّق على الموقف، رابطًا بين التصرف الحادث وبين نظرة الله تعالى، وهو أعلم البشر، لأن الله تعالى يلقي في نفسه، فما ينطق نبينا عن الهوى، شرح الرسول الموقف: فالأول الذي انصرف أعرض عن طلب العلم والخير، فأعرض الله عنه وانصرف. والثاني: أقبل مُحبًّا للعلم والتفقه في الدين، فأقبل الله عليه بالثواب والفهم والرضا، أما الثالث، فهو جلس خلف الحلقة والقوم، لم يستمع ولم يشارك حياءً، وقد استحيا الله منه، فلم ينظر إلى ما فعل.

لم يذكر راوي الحديث أسماء هذه الشخصيات، وهذا من الممكن، نظرًا لأن المجتمع وقتئذ صغير، متعارف، وهذا عائد إلى فهم الراوي للأمر؛ فمناط القضية ليس ذكر الأسماء بل استعراض الموقف وكيفية معالجته، وذكر إرشاد الرسول. أيضًا الرسول ﷺ آثر أن يكون التوجيه عامًّا، ولو شاء لنادى كل فرد من الثلاثة على حدة وأرشده، ولكنه أراد أن يسمع الجالسين، لتتسع مساحة الإفادة، لأن الإعراض والحياء في طلب العلم مرفوض شرعًا.

– عنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ قَالَ "الْمُتَكَبِّرُونَ"(٢٦٤) وَالثَّرْثَارُ هُوَ الْكَثِيرُ الْكَلَامِ وَالْمُتَشَدِّقُ الَّذِي يَتَطَاوَلُ عَلَى النَّاسِ فِي الْكَلَامِ.

٢٦٤ ) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، رقم ٢١٥٠. ( حديث حسن غريب )

يتناول هذا الحديث قضية أخرى إنها قضية الأخلاق بشكل عام، فذوو الأخلاق الطيبة والسلوك الحسن ينالون محبة الرسول وصحبته والقرب منه يوم القيامة. ونلحظ أن الخطاب النبوي كان بصيغة الجمع، لأنه يتوجه إلى عامة المسلمين، فالأخلاق الحسنة أمر مهم وأساس في حياة المسلم. كما أن الأخلاق الحسنة أمر اجتماعي في الأساس، لأنها تصرفات وسلوكيات مع الناس جميعا. هذه البشارة عامة للجميع: نيل حب رسول الله والقرب منه، أي الجنة يوم القيامة، ثم يأتي تخصيص وتحذير، فهو يحذر من ثلاثة: الثرثار، والمتشدق، والمتفيقه، وهي سلوكيات قولية، فالثرثار من يكثر كلامه، فيزعج من حوله، فإنما الصمت والهدوء من سمات المسلم. أما المتشدق فهو الذي يتكلم مبرزًا فصاحته[٢٦٥]، وهذا سلوك متكلف مذموم، فيه تعالٍ، ودليل على ادعاء ما ليس في النفس، وتكبر خفي على من يسمعه. أما الثالث: فهو المتفيقه الذي يتطاول في الكلام، والتطاول قد يكون بادعاء العلم والفهم في أشياء لا علم له فيها، وإنما يريد أن يكون بارزًا ظاهرًا متصدرًا للمجالس.

هناك قواسم مشتركة بين الثلاثة وهي: أنهم يتصفون بصفات قولية مذمومة، وجميعهم يرغب في الشهرة وحب الظهور، وأنهم يكثرون الكلام، كل على شاكلته وما ذهبت إليه نفسه، وأيضًا هذه النوعية من البشر تنفرد دائما بالتصرف وعدم احترام من حولها في آرائهم وشخوصهم، فهي ذات نظرة تنفي الآخرين، وسلوك فيه أنانية، وحط من شأن من حولها. فالتحذير من هؤلاء، هو تحذير من سلوكيات مبغضة من الناس، وسرعان ما يلفظهم الناس من مجالسهم.

- عَنْ شَقِيقٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِذَا كُنْتُمْ ثَلاَثَةً فَلاَ يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ"[٢٦٦].

هذا الحديث يشير إلى تصرف بسيط، ولكنه غاية في التأثير، ويأتي مع نفس المنظومة الأخلاقية التي ذُكرَت في الحديث السابق، خاصة البُعد القولي، وهو

٢٦٥ ) القاموس المحيط، مادة شدق، ص ١١٥٨.
٢٦٦ ) صحيح مسلم، كتاب السلام، رقم ( ٥٨٢٦ ).

يتناول تصرفاً يحدث كثيرًا، دون قصد، وهو إذا كان هناك ثلاثة متصاحبين في سفر أو جلسة، فلا يتحدث اثنان من الثلاثة، لأنه هذا يحزنه، والنجوى هي الكلام في السر، والحديث الهامس[٢٦٧] والنجوى تشمل أمورًا عدة: التحدث بصوت هامس بين الاثنين والثالث يراقبهما، أو أن يعتزلا الثالث ويتناجيان، وفي جميع الأحوال يكون الشخص الثالث معزولاً، نائيًا عنهما، فتلعب الظنون بنفسه؛ أن يكونا الاثنان يتحدثان عنه سخرية، أو لا يحبانه، أو لا يقدران عقله وشخصه لذا لا يهتمان بالسماع إليه. وقد نهى الله تعالى عن النجوى عامة: **{إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}**[٢٦٨].

– عَنْ أَبِي الأَحْوَصِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ الرَّجُلُ أَمُرُّ بِهِ فَلاَ يَقْرِينِي وَلاَ يُضَيِّفُنِي فَيَمُرُّ بِي أَفَأَجْزِيهِ قَالَ "لاَ، أَقْرِهِ". قَالَ وَرَآنِي رَثَّ الثِّيَابِ فَقَالَ "هَلْ لَكَ مِنْ مَالٍ". قُلْتُ مِنْ كُلِّ الْمَالِ قَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ مِنَ الإِبِلِ وَالْغَنَمِ. قَالَ "فَلْيُرَ عَلَيْكَ"[٢٦٩] وَمَعْنَى قَوْلِهِ "أَقْرِهِ" أَضِفْهُ وَالْقِرَى هُوَ الضِّيَافَةُ .

هذا الحديث يشير إلى قضيتين سلوكيتين أخرى وهي المعاملة بالمثل مع الناس وحسن المظهر، وعبر هذا البناء الحواري، فالصحابي الجليل يشتكي من أنه يمر برجال لا يكرمونه ولا يقومون بواجب ضيافته، ثم يحدث العكس، أن يمروا هم به، فهل يضيّفهم؟ أجابه الرسول بجواب موجز، وطلب منه أن يكرمه ويستضيفه، لأنه يتعامل بأخلاق الإسلام: الكرم، وعدم المعاملة السيئة بالمثل. ثم ينظر الرسول إليه، فيراه بثياب بالية، قديمة، فيسأله عن أحواله المادية، فيخبره الصحابي أن لديه الإبل والغنم، فيطلب منه الرسول أن يظهر ذلك عليه في ملبسه، فإن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده.

---

٢٦٧ ) القاموس المحيط، مادة نجو، ص١٧٢٣.
٢٦٨ ) سورة المجادلة، الآية (١٠ )
٢٦٩ ) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، رقم ٢١٣٧، ( حديث حسن صحيح )

هاتان قضيتان ليستا هامشيتان، إنهما تتصلان بتعامل المسلم مع الناس: في المعاملة بالمثل خاصة واجب الضيافة، فهي من أهم وسائل جذب القلوب وتحبيب النفوس إلى بعضها، وأيضًا في مظهر المسلم، فالنفس البشرية تميل إلى المظهر الحسن، فهذا يساهم في الألفة، والقبول الاجتماعي.

وفي ضوء هذا السياق، يأتي هذا الحديث:

– عَنْ فُضَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ وَلاَ يَدْخُلُ النَّارَ يَعْنِي مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ". قَالَ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ إِنَّهُ يُعْجِبُنِي أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي حَسَنًا وَنَعْلِي حَسَنَةً. قَالَ "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْجَمَالَ وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ بَطَرَ الْحَقَّ وَغَمَصَ النَّاسَ" (٢٧٠).

الرسول ﷺ ينهى عن التكبر عامة، فلن ينال الجنة المتكبرون، الذين يرون أنفسهم أفضل من الآخرين، ولو كان أقل القليل، وهذا يأتي ضمن المنظومة الأخلاقية العامة للإسلام؛ التي تنهى عن التكبر، وتأمر بالتواضع، ومن التكبر الثرثرة والتفيقه والتشدق في القول الذي مرّ بنا فيسأله رجل أنه يعجبه أن يكون حسن المظهر: ثوبًا ونعالاً، فيوضح الرسول ﷺ القضية بأنها لا تتصل بالمظهر بل بالقلب، فما في القلوب ينعكس على التصرفات المتكبرة. وهذا الرأي من الرسول ﷺ يتناغم مع الحديث السابق الذي يأمر فيه الرسول الرجل بالمظهر الحسن.

٢٧٠ ) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، رقم ٢١٣٠، ( حديث حسن صحيح غريب ) وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي تَفْسِيرِ هَذَا الْحَدِيثِ " لاَ يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ " . إِنَّمَا مَعْنَاهُ لاَ يُخَلَّدُ فِي النَّارِ . وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ " يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ " . وَقَدْ فَسَّرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ التَّابِعِينَ هَذِهِ الآيَةَ : (رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ) . فَقَالَ مَنْ تُخَلِّدُ فِي النَّارِ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ .

**ثالثًا: الظنون في النفس المؤمنة:**

ويقصد به ما يعتري النفس المؤمنة من ظنون نحو نفسها ونحو الآخرين، وهي ظنون وجدت مجالاً من النقاش مع الرسول ﷺ.

– عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ – وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ – قال: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ قَالَ قُلْتُ نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كثيرًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "وَمَا ذَاكَ". قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كثيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً". ثَلاَثَ مَرَّاتٍ (٢٧١).

في نص الحديث حواران: بين حنظلة وأبي بكر الصديق رضي الله عنه ثم بين الصحابيين الجليلين والرسول ﷺ، فحنظلة رضي الله عنه يصارح أبا بكر بما في نفسه، وأبو بكر يقرُّ معترفًا بهذا الأمر، وهذا يعكس الحوار الإيماني الذي كان أفراد المجتمع المسلم في عهد الرسول ﷺ وقد غدا الاثنان إلى الرسول الذي استمع لحنظلة، وأقر أن هذا حادث، ولا خوف منه. لأن القلوب تتبدل، إذا سمعت الحكمة والموعظة الدينية تحلّق في آفاق الإيمان العليا، وإذا عادت إلى أمور الدنيا: زوجة، وولد، ومال، وتعاملات الناس، فإنها تنتكس إلى الأرض. والمؤمن إنسان في حاجة للزوجة والولد والمال والناس، فلا مفر من المواءمة بين الحالتين: سماع الموعظة والسمو الإيماني، وبين معافسة الدنيا ومشاغلها. إنها ساعة وساعة، وحال وحال.

---

٢٧١ ) صحيح مسلم، كتاب التوبة، رقم ٧١٤٢

– عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، أَنَّ نَاسًا، مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ قَالَ "مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ شَيْئًا هُوَ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ"(٢٧٢) وَالْمَعْنَى فِيهِ وَاحِدٌ يَقُولُ لَنْ أَحْبِسَهُ عَنْكُمْ.

هذا الحديث يتعلق بظنون النفس المؤمنة نحو العطاء المالي، فقد طلب جماعة من الأنصار المال من الرسول ﷺ وهو من مال بيت المسلمين، ويبدو أن النهم قد أصابهم، فاستزادوا العطاء من الرسول، والرسول يعطي، فلما وجد الطمع، أرشدهم إلى أن الأمر يتعلق بالنفس، وبنظرتهم له، وبما عنده، فلو كان لديه المزيد لأعطاهم، حتى لا يظنوا أن الرسول يحبس المال عنهم، ولا يأخذ الشيطان حظا من نفوسهم، فيظنون ما لا يليق بالرسول ﷺ، ثم ينصحهم بالصبر والتعفف والاستغناء، فمن تحلى بهذه القيم، فإن الله سيكون معه، ونلحظ أن الأفعال المستخدمة: يستغن، يستعفف، يتصبر، فالتاء تفيد هنا الإيجابية الشخصية، حيث يحرص الفرد على التحلي بهذه القيم، ويتكلفها في نفسه، وفي هذه الحالة، فإن الله تعالى سيغرسها في أعماق المؤمن، لأن القيمة تنتقل من حالة التطبع إلى حالة الطبيعة. ونلاحظ أيضًا أنها قيم نفسية، حاكمة لشهوات النفس التي تنعكس في سلوكيات الطمع والأثرة والأنانية، وتبذر في القلوب الظنون والشكوك حول الناس.

– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ مَا عَابَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَعَامًا قَطُّ كَانَ إِذَا اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ وَإِلاَّ تَرَكَهُ (٢٧٣).

هذا الحديث بسيط يتصل بسلوك الرسول ﷺ ذاته، ولكنه يتناول قضية لا تخص الرسول كسلوك شخصي، وإنما هي تتصل بسلوكيات اجتماعية في أمور الطعام. فإن الرسول ﷺ كان يأكل ما يحب، فإذا عافت نفسه طعامًا ما، فهو لا يأكل منه، بل يتركه. إنه تصرف محمود، يشتمل على الترك دون تعليق لفظي قد يحزن صانع الطعام ومقدمه، ويجعل الآخرين يبتعدون عن الطعام نفسه. فهذا

٢٧٢ ) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، رقم ٢١٥٦، ( حديث حسن صحيح )
٢٧٣ ) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، رقم ٢١٦٣. ( حديث حسن صحيح )

الحدث يتناول احترام البعد النفسي لمن يقدم الطعام ويبذله، ويحتر خصوصيات الشعوب في أصناف الأطعمة المختلفة، مادامت لا تتعارض مع ما أمر به الشرع الإسلامي في الطعام الحلال.

– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ اَعْتَمَ رَجُلٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ فَوَجَدَ الصِّبْيَةَ قَدْ نَامُوا فَأَتَاهُ أَهْلُهُ بِطَعَامِهِ فَحَلَفَ لاَ يَأْكُلُ مِنْ أَجْلِ صِبْيَتِهِ ثُمَّ بَدَا لَهُ فَأَكَلَ فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِهَا وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ" (٢٧٤).

إنه موقف إنساني، متكرر في حياتنا، أن لا يأكل الأب الطعام المقدم إليه، مؤثرًا به أبناءه. وقد فعلها أحد الصحابة، ولكنه أسبق فعله بحلف، فلما شعر بالجوع، أكل، مخالفًا يمينه. واضطربت نفسه، فغدا إلى الرسول يستشيره في الأيمان التي حلفها. وقد فهم الرسول الأمر، وقدّر تنازع العاطفة الأبوة، ورغبة النفس في أعماق الرجل، فلم يعلق على فعلة الرجل، فهي من باب المباحات، ولا شيء عليه، وإنما أجاب عن استفسار الرجل، فمن الممكن أن يرجع الشخص عن يمينه، لما هو خير، ويكفر عن هذه اليمين بالكفارات الشرعية وهي على الترتيب: عتق رقبة أو كسوة عشرة مساكين، أو الإطعام لعشرة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام (٢٧٥)، مصداقًا للآية الكريمة: { **فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } (٢٧٦).

❁ ❁ ❁

٢٧٤ ) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب من حلف يمينا..، رقم ٤٣٦٠.
٢٧٥ ) فقه السنة، ج٣، ص٨٣، وهي على الترتيب من الأعلى إلى الأدنى.
٢٧٦ ) سورة المائدة، الآية ( ٨٩ ).